

ما شعورك في أن تكون خفاشاً؟

توماس نيغل

What Is It Like to Be a Bat?

Thomas Nagel

Published by: Duke University Press

ترجمة: جوزيف بوشرة

إنّ الوعي هو ما يجعل من مشكلة الدّهن – الجسد «Mind-Body Problem» أمرًا عسيرًا. ولعلّ هذا هو السّبب في أنّ النقاشات الحاليّة المتعلّقة بهذه المشكلة لا تعيّر الوعي الاهتمام الكافي، أو تفهمه على نحوٍ خطأ. إنّ موجة الحماسة الاختزاليّة «reductionist euphoria» المستجدة قد أنتجت تحليلاتٍ عدّة للظواهر والمفاهيم الدّهنيّة المُصمّمة لتفسير إمكانيّة وجود أنواعٍ أخرى من المادّيّة، أو من التّماهي النّفسيّ الفيزيائيّ «Psychophysical identification»، أو من الاختزال.¹ لكنّ المشاكل المُعالِجة هي تلك المشاكل المألوفة لدى هذا النوع وغيره من الاختزال. بينما يتمّ تجاهل ما يجعل مشكلة الدّهن – الجسد فريدةً، خلافاً لمشكلة الماء – (H₂O)، أو مشكلة

¹ الأمثلة على ذلك هي:

J. J. C. Smart, *Philosophy and Scientific Realism* (London, 1963).

David K. Lewis, "An Argument for the Identity Theory," *Journal of Philosophy*, LXIII (1966), reprinted with addenda in David M. Rosenthal, *Materialism & the Mind-Body Problem* (Englewood Cliffs, N. J., 1971).

Hilary Putnam, "Psychological Predicates" in Capitan and Merrill, *Art, Mind, & Religion* (Pittsburgh, 1967), reprinted in Rosenthal, op. cit., as "The Nature of Mental States".

D. M. Armstrong, *A Materialist Theory of the Mind* (London, 1968).

D. C. Dennett, *Content and Consciousness* (London, 1969).

وقد عبّرتُ مسبقًا عن شكوكٍ في مقالاتي في:

"Armstrong on the Mind," *Philosophical Review*, LXXIX (1970), 394-403.

"Brain Bisection and the Unity of Consciousness," *Synthese*, 22 (1971).

وكذلك في مراجعتي لدانيال دينيت في:

A review of Dennett, *Journal of Philosophy*, LXIX (1972).

راجع أيضًا:

Saul Kripke, "Naming and Necessity" in Davidson and Harman, *Semantics of Natural Language* (Dordrecht, 1972), esp. pp. 334-342.

M. T. Thornton, "Ostensive Terms and Materialism," *The Monist*, 56 (1972).

آلة تورنغ – آلة شركة (IBM)، أو مشكلة البرق – التفريغ الكهربائي، أو مشكلة الجين – الحمض النووي الصبغى «DNA»، أو مشكلة السنديانة – الهيدروكربون.

كلُّ اختزاليٍّ يملك تماثله «Analogy» المفضَّل من العلم الحديث. ومن المرجَّح ألاّ تضيفَ هذه الأمثلة المتباينة من الاختزال الناجح شيئاً إلى معرفتنا في ما يخصّ علاقة الذَّهن بالدِّماغ. لكنَّ الفلاسفة يتشاركون مع سائر البشر الضَّعْفَ نفسه في تفسير ما يكون غير مفهومٍ من خلال مصطلحاتٍ ثلاثمُ المألوفِ والواضح، على الرَّغم من اختلافها كلياً. وأدّى هذا الضَّعْف في التفسير إلى تقبُّل شروحٍ متعلِّقةٍ بالذَّهن غير قابلةٍ للتصديق، لأنَّ معظم هذه الشُّروح تسمح بأنواعٍ مألوفةٍ من الاختزال. سأحاول أن أفسِّرَ لما لا تساعدنا الأمثلة الاعتيادية على فهم العلاقة القائمة بين الذَّهن والدِّماغ – فعلاً، لماذا لا نملك الآن أيَّة تصوُّرٍ عمَّا يمكن أن يكونه تفسيرُ الجانب الفيزيائيِّ لظاهرةٍ ذهنيَّةٍ. إذ من دون الوعي تصبح مشكلة الذَّهن – الجسد أقلَّ تشويقاً. ومع الوعي تبدو المشكلة ميؤوساً منها. وتُفهم أهمُّ سمةٍ للظواهر الذهنيَّة الواعية «Conscious mental phenomena» بطريقةٍ مغلوطَةٍ، حيث لا تحاول أن تفسِّرها معظم النظريات الاختزاليَّة. وسيُظهر التَّفحص الدقيق أنَّه لا يوجد مفهومٌ للاختزال متوقَّراً حالياً يمكن تطبيقه على تلك الخاصية. وربَّما يمكن تصميم شكلٍ نظريٍّ جديدٍ لتلك الغاية، لكنَّما إن وُجد حلٌّ كهذا فسيكون كامناً في المستقبل الفكريِّ البعيد.

إنَّ التَّجربة الواعية «Conscious experience» ظاهرةٌ منتشرةٌ تحدث على مستوياتٍ عدَّةٍ من الحياة الحيوانية، على الرَّغم من أنَّنا لا نستطيعُ أن نكون متأكِّدين من حضورها في الكائنات العضويَّة «Organisms» الأكثر بساطةً. وعموماً من الصَّعب أن نتأكَّد ممَّا يُعطي دليلاً على وجودها في تلك الكائنات. (ويذهب بعض المتطرفين إلى درجة إنكار حضور التَّجربة الواعية في الثدييات كلّها ما عدا الإنسان.) تحدث التَّجربة الواعية من دون شكٍّ في أشكالٍ لا تُحصى، في كواكب الأنظمة الشمسيَّة الأخرى على مدى الكون، نعجزُ نحن على تصوُّرها. ولكنَّ مهما تغيَّر الشكل، فلا يزال واقع أنَّ لدى كائنٍ عضويٍّ تجربةٌ واعيةٌ يعني، مبدئياً، أن لديه شعوراً في أن يكون ذلك الكائن العضويِّ. وقد تتضمَّن مسألة شكل التَّجربة معاني أخرى؛ كما قد يتضمَّن سلوك الكائن العضويِّ معاني أخرى أيضاً (مع أيِّ شكٍّ بذلك). إنَّما لدى الكائن العضويِّ حالاتٌ ذهنيَّةٌ واعيةٌ بشكلٍ أساسيٍّ إذا فقط إذا ثمةً لذلك الكائن شعورٌ في أن يكون نفسه -شعورٌ بالنسبة للكائن نفسه.

يمكننا أن نسمي ذلك الخاصية الدَّاتيَّة للتَّجربة «Subjective Character of experience». هذه الخاصية الدَّاتيَّة لم يعبر عنها أيُّ من تحليلات الذَّهن الاختزاليَّة المألوفة والمصمَّمة حديثاً، لأنَّ هذه التحليلات كلّها تصبح متطابقةً منطقيّاً مع غياب تلك الخاصية. ولا يمكن تحليل الخاصية الدَّاتيَّة للتَّجربة على أساس أيِّ نسقٍ

تفسيريّ سواءً أكان من الحالات الوظيفية أم من الحالات القصدية، بما أنّ هذه الحالات يمكن أن تعزواً إلى الروبوتات أو إلى الآلات التي تصرفت كالبشر لكتّما ما اختبرت شيئاً^٢. كما لا يمكن تحليل الخاصية الذاتية للتجربة من حيث الدور السببي للتجارب «Causal role of experiences» في ما يتعلق بالسلوك التّمطي للإنسان، لأسبابٍ مشابهة^٣. إني لا أنكر أنّ الحالات الذهنية الواعية تسبب السلوك، وكذلك لا أنكر بأنّها قد تُعطي خصائص وظيفية «functional characteristics»، إنّما ما أنكره فقط هو أنّ هذا النوع يستنفذ التحليل استنفاداً. فلا بُدّ لأيّ برنامجٍ اختزاليّ أن يستند على تحليلٍ عمّا يجب أن يتمّ اختزاله. إذا أسقط التحليل شيئاً واحداً خارج موضوع الدراسة فستطرح المشكلة بطريقةٍ كاذبة. لا فائدة من أن يُبنى الدفاع عن المادية على أيّ تحليلٍ للظواهر الذهنية التي تعجز عن التعامل بوضوحٍ مع خاصيتها الذاتية. إذ ليس ثمة من سببٍ للافتراض أنّ الاختزال الذي يبدو قابلاً للتصديق يمكن توسعته ليشمل الوعي، في حين لا تتقدّم أيّة محاولةٍ لشرح الوعي. إذن، لا يمكننا أن نعرف ما المطلوب من النظرية الفيزيائية «Physicalist Theory» من دون فكرةٍ عمّا تكونه الخاصية الذاتية للتجربة.

بما أنّ النظرية المبنية على أساسٍ فيزيائيّ للذهن يجب أن تُفسّر أموراً كثيرةً، تبرز تلك الخاصية الذاتية أكثر صعوبةً للتفسير. فمن المستحيل استبعاد السمات الظاهرانية «Phenomenological Features» للتجربة عن الاختزال، بالطريقة ذاتها التي يستبعد فيها أحد السمات الظاهرية «Phenomenal Features» لمادّةٍ عاديةٍ عن اختزالها الفيزيائيّ أو الكيميائيّ – أي، عبر تفسيرها كتأثيراتٍ على أذهان المراقبين البشر^٤. وإذا كان لا بدّ من الدفاع عن الفيزيائية «Physicalism»، فيجب أن تُعطي السمات الظاهرانية نفسها شرحاً فيزيائياً. لكننا عندما نعين خاصية السمات الذاتية «Subjective features» تبدو نتيجةً كتلك مستحيلةً. ويعود السبب في ذلك إلى أنّ كلّ ظاهرةٍ ذاتيةٍ مرتبطةٌ جوهرياً بمنظورٍ فريدٍ، ويبدو أنّ تخلي النظرية الفيزيائية الموضوعية عن ذلك المنظور أمرٌ محتومٌ.

^٢ ربّما ليس ثمة من روبوتاتٍ كتلك في الواقع. وربّما على أيّ شيءٍ بالغ التعقيد أن يكون لديه تجاربٍ كي يتمكّن من التصرف كإنسانٍ. ولكن إذا صحّ ذلك فسيكون واقعةً لا يمكن اكتشافها بمجرد تحليل مفهوم التجربة.

^٣ لا يعادل تلك الخاصية التي نعاندها، لأننا لسنا معاندين بشأن التجارب، ولأنّ التجربة حاضرةٌ في الحيوانات التي تفتقر للغة والفكر، والتي ليس لديها أيّة اعتقاداتٍ حول تجاربها.

^٤ قارن:

دعني أحاول أولاً أن أعرض المسألة بتوسّع أكثر من مجرد الإشارة إلى العلاقة القائمة بين الذاتي وبين الموضوعي، أو بين ما هو لذاته «pour-soi» وبين ما هو في ذاته «en-soi». وهذا ليس بسيطاً. فالوقائع المتعلقة بما يكون الشعور في أن تكون س هي وقائع خاصة جداً لدرجة أن البعض قد يميل للشك في واقعها، أو في قيمة الادعاءات المتعلقة بها. وكي أبين الرابط القائم بين الذاتية وبين المنظور، ولأوضح أهمية السمات الذاتية، سيساعدنا على اكتشاف هذه المسألة مثلُ يكشف بوضوح التشعب القائم بين نوعي التصور: الذاتي والموضوعي.

أفترض بأننا جميعاً نعتقد أن لدى الخفافيش خبرةً. فبالنهاية إن الخفافيش من الثدييات، ولا يوجد أدنى شك بأن لديهم خبرةً لا تقل عن امتلاك الفئران أو الحمام أو الحيتان لها. لقد اخترت الخفافيش عوضاً عن الدبابير أو الأسماك المفلطحة لأنه إذا سار أحدٌ نزولاً في شجرة تطوّر السلالات «phylogenetic tree»، فسوف يتخلّى تدريجياً عن إيمانه بأن ثمة تجربة. وعلى الرغم من ارتباط الخفافيش بنا بشكل وثيق أكثر من الفصائل الأخرى، فهي تقدّم سلسلة من النشاطات وجهازاً حسياً مختلفاً تماماً عن خاصتنا، حيث إن المشكلة التي أريد أن أطرحها جليةً بشكل استثنائي (على الرغم من إمكانية طرحها عند فصائل أخرى). وسيعلم أيُّ من أمضى وقتاً في مكاني منعزلٍ مع خفاشٍ مُثارٍ ما تكونه ملاقة شكل حياةٍ غريبٍ كلياً عنّا حتى من دون منفعة التفكير الفلسفي.

لقد ذكرتُ أن ماهية «essence» الاعتقاد بأن لدى الخفافيش خبرةً هو أنه ثمة شعورٌ في أن تكون خفاشاً. نعرف الآن أن معظم الخفافيش (وتحديداً الخفافيش الصغيرة «Microchiroptera») يدركون العالم الخارجي عبر السونار أولاً، أو عبر تحديد الموقع بالصدى «echolocation»، فترصد الخفافيش انعكاسات الأشياء ضمن نطاق إدراكها، ومن خلال صرخاتها السريعة والمعدلة ببراعة ذات التردد العالي. فقد صمّمت أدمغتها لإقامة تناسبٍ بين المثبرات الخارجية وبين الأصداء اللاحقة، وتمكّن المعلومات المكتسبة الخفافيش من وضع تمييزاتٍ دقيقةٍ للمسافة، والحجم، والشكل، والحركة، والملمس الشبيهة بما نؤديه نحن بوساطة الرؤية. ولكنّ سونار الخفاش ليس شبيهاً في عمليته بأية حاسةٍ نمتلكها، على الرغم من أنه شكلٌ من أشكال الإدراك، وليس ثمة من سببٍ للافتراض بأنه من الناحية الذاتية يشبه أي شيءٍ نستطيع تجربته أو تخيله. وهذا ما قد يخلق صعوباتٍ لمفهوم ما يكون الشعور في أن تكون خفاشاً. وعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار أيّ منهجٍ سيمكّننا من التخمين استقرائياً في حياة الخفاش الداخلية انطلاقاً من الحالة الخاصة بنا،^o وإذا فشلنا في مسعانا، فهل ثمة مناهج بديلةٌ لفهم ذلك المفهوم.

^o من خلال جملة "الحالة الخاصة بنا" «our own case» لا أعني فقط "الحالة الخاصة بي" «my own case»، إنّما ما أعنيه هو الأفكار الذهنية «mentalist ideas» التي نطبّقها على أنفسنا وعلى البشر الآخرين من دون إشكالية.

إنَّ التَّجربةَ الخاصَّةَ بنا تؤمِّن المادَّةَ الأساسِيَّةَ لمخيِّلتنا حيث يكون نطاقها محدودًا. وهي لن تساعدنا في محاولة تخيُّل أن أحدًا لديه نسيجٌ على ذراعيه يُمكنه من الطَّيران عند الغسق وعند الفجر، ملتقطًا الحشرات بفمه؛ كما لديه رؤيةٌ ضعيفةٌ، ويدرك محيطه عبر نظام إشاراتٍ صوتيَّةٍ منعكسةٍ ذات تردِّدٍ عالٍ؛ كما يمضي النهار متدلِّيًا من رجليه رأسًا على عقب في عُليَّةٍ. وبمقدار ما أستطيع أن أتخيَّل هذا (وهو ليس بأمرٍ بعيدٍ)، فهذا يخبرني فقط ما سيكون الشعور بالنَّسبة لي في أن أتصرَّفَ كما يتصرَّفُ خفاش. ولكنَّ ليس هذا هو السَّؤال. إذ ما أريد معرفته هو ما يكون الشَّعور بالنَّسبة لخفاشٍ في أن يكون خفاشًا. إنَّما إذا حاولتُ أن أتخيَّل هذا الأمر فأني محدودٌ بموارد ذهني، وتلك الموارد غير كافيةٍ للمسعى. فلا أستطيع أن أتممَّه، سواءً أكان عبر تخيُّل إضافاتٍ إلى تجربتي الحاليَّة، أم عبر تخيُّل أجزاءٍ مستخرجةٍ منها تدريجيًّا، أم عبر تخيُّل مزيجٍ من الإضافات، والاستخراجات، والتَّعديلات. ولن تشبه تجاربي في أي شيءٍ تجاربَ دبورٍ أو خفاشٍ، إلى درجةٍ أقدِّرُ فيها على النَّظر والتصرَّفِ كتلك الحيوانات من دون تغيير بنيته الأساسيّة. من ناحيةٍ أخرى، إنَّ ربطَ أيَّة قيمةٍ بافتراضٍ مفاده عليّ امتلاك البنية الفسيولوجيَّة العصبية «neurophysiological constitution» الداخليَّة لخفاشٍ أمرٌ مشكوكٌ فيه. حتَّى إذا استطعتُ بدراجاتٍ متدرِّجةٍ أن أتحوَّلَ إلى خفاش، فلا شيءٍ في بنيته الحاليَّة يُمكنني من تخيُّل ما ستكون عليه تجاربي المتحوِّلة في مرحلةٍ مستقبليَّةٍ. إذ سيأتي الدليلُ الأفضلُ من تجارب الخفافيش، لو عرفنا فقط كيف كانت تلك التجارب.

لذا إذا ارتبط التَّخمين في الحالة الخاصَّة بنا بفكرة ما يكونه الشَّعور في أن تكون خفاشًا فسيبقى التَّخمين غير مكتملٍ. ولا نستطيع أن نُشكِّلَ أكثر من تصوُّرٍ تخطيطيٍّ عمَّا يكون الشَّعور في أن يكونه. مثلًا، قد نعزو نحن أنواعًا عامَّةً من التَّجربة على أساس بنية الحيوان وسلوكه. هكذا نصِّفُ سونار الخفاش على أنه مسبارٌ ذو إدراكٍ ثلاثي الأبعاد؛ ونعتقد بأنَّ الخفافيش تشعر ببعض أوجه الألم، والخوف، والجوع، والشهوة، ولديها أنواعٌ أخرى مألوفةٌ من الإدراك إلى جانب السَّونار. لكننا أيضًا نعتقد أن لدى هذه التَّجارب في كلِّ حالةٍ خاصيَّةٍ ذاتيَّةٍ محدَّدةٌ، والتي تتجاوز قدرتنا على تصوُّرها. وإذا ثمة من حياةٍ واعيةٍ في مكانٍ آخر في الكون، فمن المرجح ألاَّ يكون البعضُ منها قابلاً للوصف حتَّى باستعمال مصطلحاتنا التجريبيَّة «experiential terms» الأكثر شمولاً وتوفُّراً^٦ (ليست المشكلة محصورةً بحالاتٍ غريبةٍ، بل إنَّها موجودةٌ بين شخصٍ وآخر. وعلى سبيل المثال لا أستطيع الولوج إلى الخاصيَّة الدَّاتيَّة لتجربة شخصٍ أصمٍّ وأعمى منذ ولادته، مثلما لا يستطيع هو الولوج إلى

^٦ إنَّ الشَّكْل النَّمَاطِيَّ لِلتَّعْبِيرِ الْإِنْكَلِيزِيِّ «What it is like» «ما شعورك» ملتبسٌ. فالنَّعْبِيرُ لَا يَعْنِي (it resembles) (in our what (experience) «ما يشبهه (في تجربتنا) شعورك»، إنَّما يَعْنِي «how it is for the subject himself» «كيف يكون الشَّعور بالنَّسبة للذَّات نفسها».

الخاصية الذاتية لتجربتي. وهذا لا يمنع أيًا منّا عن الاعتقاد بأن تجربة الآخر لديها خاصية ذاتية. إذا يميل أحدٌ إلى إنكار أننا قادرين على الاعتقاد بوجود وقائع كهذه، والتي يُستحال أن نتصوّر طبيعتها الدقيقة، فلا بدّ له من التفكّر أنّه خلال تأمّلنا للخفافيش نكون نحن في الموقع المشابه الذي تحتله الخفافيش الذكية أو المريخيون^٧ إذا ما حاولوا أن يكونوا تصوّرًا عمّا كان الشعور في أن يكونونا.

إنّ بنية أذهانهم الخاصة بهم قد تجعل عملية نجاح التّصوّر مستحيلةً، لكننا نعلم أنّهم سيكونون على خطأ في استنتاجهم أنّه ليس ثمة من أمرٍ أكيدٍ مفاده أنّه ثمة شعورٌ في أن يكونونا؛ وأنّه يمكن أن يُعزّا لنا فقط بعض الأنواع العامّة من الحالات الذهنيّة (قد يكون الإدراك والشّهية مفهوميّن مشتركين عند كلينا؛ وقد لا يكونا كذلك). نحن نعلم أنّهم سيكونون على خطأ في استخلاصهم نتيجةً شكّائيّةً «Skeptical» كهذه لأننا نعلم ما يكون الشّعور في أن نكون نحن. ونعلم أيضًا أنّ الخاصية الذاتية لتلك الحالة محدّدة جدًّا، ويمكن وصفها في بعض النواحي بمصطلحاتٍ تفهمها مخلوقاتٌ تشبهنا حصرًا، على الرّغم من أنّها تضمّ عددًا هائلًا من التّغيّرات والتعقيدات، ولا نملك نحن الرّصيد اللّغويّ «vocabulary» لوصفها بإنصافٍ. لا يجب أن تقودنا واقعةٌ أننا لا نتوقّع أبدًا ملاءمةً وصفٍ مفصّلٍ للظّاهرائيّة المريخيّة أو الخفّاشيّة مع لغتنا إلى رفض أن لدى الخفافيش والمريخيين تجاربٌ يمكن مقارنتها كاملةً بنا من ناحية الغنى في التّفصيل، حيث يُشجّب هذا الادّعاء على أنّه خالي من المعنى. وسيكون أمرًا جيّدًا إذا قرّر أحدٌ أن يطور مفاهيمٍ ونظريّةً يمكننا من التّفكير في هذه الأشياء؛ لكنّ فهمًا كهذا قد تمنعه حدود طبيعتنا بشكلٍ دائمٍ. وإنّ إنكار الواقعيّة أو الأهميّة المنطقيّة لما لا يمكننا وصفه أو فهمه أبدًا فهذا أغلظُ شكليّ من أشكال التّنافر المعرفي «cognitive dissonance».

هذا يوصلنا إلى عتبة موضوعٍ يتطلّب نقاشًا أكثر ممّا أستطيع تأمينه هنا: وهو بشكلٍ أساسيّ العلاقة القائمة بين الوقائع من جهةٍ وبين التّخطيطات التّصوريّة «conceptual schemes» أو أنظمة التّمثيل «systems of representation» من جهةٍ أخرى. وإنّ واقعيّة «realism» في ما يتعلّق بالمجال الذاتيّ في أشكاله كلّها تستوجب اعتقادًا بوجود وقائع تتخطّى محاولة المفاهيم البشريّة على بلوغها. فمن المؤكّد يمكن أن يعتقد كائنٌ بشريٌّ أنّ ثمة وقائع لن يملك البشر المفاهيم الضّروريّة لتمثيلها أو فهمها. فعلاً، سيكون الشكُّ بهذا ضربًا من الحمافة، بما أنّ لدى الإنسان عددًا متناهيًا من التّوقّعات. ففي جميع الأحوال، حتّى لو أباد الموت الأسود النّاس كلّهم فثمة أعدادٌ موهغةٌ «transfinite numbers» قبل أن يكتشفها كانتور «Cantor». لكنّنا قد نعتقد أحدًا أيضًا أنّ ثمة وقائع لا تستطيع الكائنات البشريّة أبدًا تمثيلها أو فهمها، حتّى لو دامت تلك الكائنات أبديةً -لأنّ بنيتنا بكلّ

^٧ أيّة كائناتٍ ذكيّةٍ من الفضاء الخارجيّ تختلف عنّا.

بساطةٍ لا تسمحُ لنا بأن نتعاملَ مع مفاهيمٍ من النوعِ الضَّروريِّ. هذه الاستحالةُ قد تلاحظها كائناتٌ أخرى، إنّما ما ليس واضحًا هو أنّ وجود تلك الكائنات، أو إمكانية وجودها، شرطٌ مسبقٌ لأهميّة الفرضيّة القائلة بأنّ ثمة وقائعٍ بشريّةٍ لا يُمكن الولوج إليها. (فبالنهاية إنّ طبيعة الكائنات القادرة على الولوج إلى الوقائع البشريّة التي لا يمكن الولوج إليها، هي نفسها واقعةٌ بشريّةٌ لا يمكن الولوج إليها.) هكذا يبدو التّفكّر حول ما شعورك في أنّ تكونَ خفّاشًا أنّه يقودنا إلى استنتاجٍ مفادُه ثمة وقائع لا تكمن في حقيقة القضايا المعبر عنها بلغةٍ بشريّة. وقد نُجبر على الاعتراف بوجود وقائع كتلك من دون القدرة على الإقرار بها أو فهمها.

ولكنني لن أسعى خلف هذا الموضوع. إذ إنّ تأثيره على ما هو مطروحٌ أمامنا (بشكلٍ أساسيٍّ مشكلة الدّهن-الجسد) هو أنّه يساعدنا على إقامة ملاحظةٍ عامّةٍ عن الخاصيّة الذاتية للتّجربة. مهما تكن منزلة الوقائع حول ما يكون الشّعور في أن تكون كائنًا بشريًّا أو خفّاشًا، أو مريخيًّا، تبدو هذه الوقائع أنّها تجسّد منظورًا معيّنًا.

أنا لا أشير هنا إلى المبدأ الذي يزعم أنّ التّجربة خاصّةٌ بصاحبها حصراً. أمّا المنظور الذي نحن بصددده فهو ليس قابلاً للولوج عند فردٍ واحدٍ فقط، إنّهُ بالأحرى نوعٌ «type». وغالبًا من الممكن اتّخاذُ منظورٍ آخر بدلاً من ذلك الخاص بنا، لذا لا يكون فهمُ وقائع كتلك محدودًا بالحالة الخاصّة بنا.

ثمة طريقةٌ معيّنّةٌ تكون الوقائع الظاهرانيّة فيها موضوعيّةً تمامًا: يستطيع شخصٌ أن يعرف أو يقول عن الآخر ما نوعيّة تجربته. إنّها ذاتيّةٌ، ولكن، بمعنى أنّ هذا العزو الموضوعي «objective ascription» للتّجربة يكون ممكنًا فقط لأحدٍ يشبه موضوع العزو «the object of ascription» بشكلٍ كافٍ كي يقدر على تبني منظوره _ أي لفهم العزو في صيغة المتكلّم كما في صيغة الغائب. وكلّما كان الشّخص المجربُ «Experiencer» مختلفًا عنّا كلّما بات توقّع نجاح هذه العمليّة أقلّ. أمّا في الحالة الخاصّة بنا، فنحن من نشغلُ المنظور المناسب، لكننا بقدر ما نملك صعوبةً في فهم تجربتنا بشكلٍ صحيحٍ، إذا قاربناها من منظورٍ آخرٍ، بقدر ما نستطيع فعل ذلك، إنّ حاولنا أن نفهم تجربة فصائلٍ أخرى من دون اتّخاذ منظورها.^٨

^٨ قد يكون التّسامي فوق الحواجز البينفصليّة «inter-species» بمساعدة المخيلة أسهل بكثيرٍ ممّا اعتقد. وعلى سبيل المثال، العميان قادرون على كشف الأشياء القريبة منهم عبر شكلٍ من السونار، مستعملين الطّقطقات الصوتيّة أو نقرات العصا. وربّما إذا عرف أحدٌ ما كان الشّعور في ذلك لاستطاع أن يتخيّل بصعوبةٍ ما كان الشّعور في أن يمتلك سونارًا أحسن من سونار خفّاشٍ. فالمسافة بين ذاك الشّخص وبين أشخاصٍ آخرين وبين فصائلٍ أخرى يمكن أن تقع في أيّ مكانٍ على مسارٍ متدرّجٍ «continuum». وحتىّ بالنسبة لأشخاصٍ آخرين، إنّ فهم ما يكون الشّعور في أن يكونوا أنفسهم هو جزئيٌّ فقط. وعندما ينتقل أحدٌ إلى فصائلٍ تختلف جدًّا عنه، حينها قد لا يزال الفهم الجزئي متوقّرًا إنّما بدرجةٍ أقلّ. إنّ المخيلة مرنةٌ بشكلٍ ملحوظٍ. ولكن ليس موقفي أنّنا لا نستطيع أن نعرف ما يكون الشّعور في أن تكون خفّاشًا.

هذا يتعلّق مباشرةً بمشكلة الدّهن – الجسد. فإذا كانت وقائع التّجربة – أي الوقائع المتعلّقة بما يكونه الشّعور بالنسبة للكائن العضويّ المتعرّض للتّجربة – قابلةً للولوج فقط من منظورٍ واحدٍ، فيكون إذن لغزاً كيف يمكن كشف الخاصية الحقيقية للتجارب في العملية الفيزيائية لذلك الكائن العضويّ. إذ إنّ الأخير هو مجال الوقائع الموضوعية بكلّ ما للكلمة من معنى – أي ذلك النوع الذي يمكن من منظوراتٍ عدّة أن يلاحظه ويفهمه أفراًدً بأنظمة إدراكية متباينة. ولا توجد عوائق قابلةً للمقارنة والتخيّل عندما يرتبط الأمر باكتساب علماء بشريين معرفةً حول الفسيولوجيا العصبية لخفاش، وقد تتعلّم الخفافيش الذكيّة أو المريخيّون عن الدّماغ البشريّ أكثر ممّا سنتعلّمه نحن يوماً.

ليس هذا بذاته حجّةً ضدّ الاختزال. إذ يستطيع عالمٌ مريخيّ أن يفهم قوس القزح، أو البرق، أو السّحب، على أنّها ظواهرٌ فيزيائيةٌ من دون معرفة الإدراك البصريّ، على الرّغم أنّه لن يقدر على فهم المفاهيم البشرية لقوس القزح، البرق، أو السّحب، أو حتّى على فهم المكانة التي تحتلّها تلك الأشياء في عالمنا الظاهريّ. يستطيع المريخيّ أن يفهم الطبيعة الموضوعية للأشياء التي تلتقطها تلك المفاهيم، لأنّ الأشياء التي تُفهم من ذلك المنظور ليست مرتبطةً بمنظورٍ معيّنٍ ولا بظاهرائيةٍ بصريةٍ معيّنَةٍ، بعكس تلك المفاهيم، إذ يمكن ملاحظة الأشياء من منظورٍ خارجيّ عن المريخيّ؛ وتبعاً لهذا يمكن فهم الأشياء من منظوراتٍ أخرى أيضاً، سواءً أكانت الكائنات العضوية نفسها من تفهمها أم كائناتٍ أخرى. لدى البرق خاصيةٌ موضوعيةٌ لا يستطيع مظهره البصريّ «visual appearance» استنفاد الكلام عنها، كما يستطيع مريخيّ من دون بصرٍ أن يتحقّق في أمرها. ولأكون دقيقاً، لدى البرق خاصيةٌ موضوعيةٌ أكثر ممّا يظهره مظهره البصريّ. في الكلام عن الانتقال من التّخصيص الذاتيّ إلى التّخصيص الموضوعي، أودّ أن أُعلّق حكيمياً بشأن وجود نتيجةٍ نهائيةٍ، طبيعة الشّيء الفطرية والموضوعية تماماً، والتي قد نقدر على بلوغها أو قد نعجز على ذلك. قد يكون أكثر دقّةً أن نفكّر في الموضوعية على أنّها اتّجاهٌ حيث يستطيع الفهم أن يمرّ فيه. وفي فهم ظاهرة كالبق، يجوز أن نبتعد قدر المستطاع عن منظورٍ محصورٍ بالبشر.⁹

فأنا لا أثير تلك المشكلة الأبيستولوجية «epistemological». بل إنّ موقفي هو أنّه كي نقيم تصوّراً عمّا يكون الشّعور في أن تكون خفاشاً (كي نعلم بحجّةٍ منطقيةٍ أقوى «a fortiori» ما يكونه الشّعور في أن تكون خفاشاً) علينا اتّخاذ منظور الخفاش. وإذا يمكن لشخصٍ اتّخاذ ذلك المنظور تقريبياً أو جزئياً، فسوف يكون إذن تصوّره تقريبياً أو جزئياً أيضاً. وهذا ما يبدو عليه الأمر في حالة فهمنا الحالية.

⁹ إذن يمكن طرح المشكلة التي سأقدم على إثارتها حتّى لو يمكن للتمييز بين أكثر الأوصاف والمنظورات ذاتيةً وأكثرها موضوعيةً أن يكون نفسه موجوداً فقط في داخل منظورٍ بشريّ أكبر. أنا لا أقبل هذا النوع من النسبية التصورية «Conceptual relativism»، ولكنّها لا

أما في ما يخص التجربة، فيبدو الترابط مع منظور معين أقرب صلة. ومن الصعب أن نفهم ما قد يُقصد بالخاصية الموضوعية للتجربة، من دون المنظور الفريد الذي من خلاله يفهمها صاحب المنظور. وفي النهاية ماذا سيبقى مما يكون الشعور في أن تكون حقاشاً إذا أزلنا منظور الحقاش؟ ولكن إذا لا تملك التجربة، إلى جانب خاصيتها الذاتية، طبيعة موضوعية يُمكن فهمها من منظورات متعددة، فكيف يمكن الافتراض أن مريخياً متفحصاً دماغياً قد يلاحظ عمليات فيزيائية، وهي عملياتي الذهنية (مثلما قد يلاحظ عمليات فيزيائية وهي الصواعق)، فقط من خلال منظور مختلف؟ كيف يستطيع في هذه الحالة عالمٌ فسيولوجي بشري ملاحظتها من منظور آخر؟^{١٠}

يبدو أننا نواجه صعوبةً كبرى في ما يخص الاختزال النفسي الفيزيائي. وفي مجالاتٍ أخرى تقودنا عملية الاختزال في اتجاه موضوعية كبرى، نحو رؤية دقيقة للطبيعة الحقيقية للأشياء. يتم هذا من خلال اختزال اعتمادنا على منظوراتٍ فردية أو محددةً بفصيلة «species-specific» نعتمد عليها حيال موضوع دراستنا. إذ نحن لا نصف عملية الاختزال من ناحية الانطباعات التي تقوم بها على حواسنا، إنما نصفها من ناحية تأثيراتها العامة ومن ناحية الخواص التي يمكن كشفها بوساطة وسائل أخرى غير الحواس البشرية. وكلما قل اعتماد الاختزال على منظور بشري محدد كلما يكون وصفنا له موضوعياً أكثر. من الممكن اتباع هذا الإجراء لأنه على الرغم من أن المفاهيم والأفكار، التي نوظفها عند تفكيرنا في العالم الخارجي، تُطبق مبدئياً من منظور يتضمن الجهاز الإدراكي، فنحن نستعملها للإشارة إلى أشياء تتخطى أنفسها – باتجاه تلك التي نملك منظوراً ظاهرياً فيها. هكذا يمكننا التخلي عنها لصالح أخرى، ونظل نفكر في الأشياء نفسها.

ولكن، لا تظهر التجربة نفسها مناسبةً للنمط. إذ تبدو فكرة الانتقال من المظهر إلى الواقع أتمها من دون معنى هنا. ففي هذه الحالة، ما هو تماثل «analogue» البحث عن فهم موضوعي للظواهر نفسها من خلال التخلي عن المنظور الذاتي الأولي المتعلق بها لصالح منظور آخر يكون أكثر موضوعياً إنما متعلقٌ بالشئ نفسه؟ طبعاً، يبدو من غير المحتمل أننا سنقترب يوماً إلى حقيقة طبيعة التجربة البشرية من خلال التخلي عن فرادة منظورنا البشري، والسعي إلى وصفٍ ذي مفاهيم قابلةٍ للولوج عند كائناتٍ لا تستطيع أن تتخيل ما كان الشعور في أن

تحتاج إلى التفتيد كي تجعل من حجة الاختزال النفسي الفيزيائي حجةً لا يمكن أن يلائمها نموذج ذاتي-إلى-الموضوعي المؤلف عن الحالات الأخرى.

^{١٠} ليست المشكلة فقط أن لدى تجربتي البصرية نوعية معينة، إذ حينما أنظر إلى "الموناليزا" لن يعثر أحدٌ يتفحص دماغياً على أثرٍ منها. حتى لو لاحظ أن ثمة صورة مصغرة للموناليزا، فلن يكون لديه أي سببٍ كي يعتبرها مطابقةً للخبرة.

يكونوننا. إذا كانت الخاصية الذاتية للتجربة مفهومةً بشكلٍ كاملٍ من خلال منظورٍ واحدٍ فقط، فلن يقربنا أكثر أيّ انعطافٍ نحو موضوعيةٍ كبرى – أي نحو تعلقٍ أقلّ بمنظورٍ محددٍ - من الطبيعة الحقيقية للظاهرة بل يُبعدنا عنها.

بمعنى، أنه يمكننا توًّا كشف أصول هذا الاعتراض على اختزالية التجربة في حالاتٍ اختزالٍ ناجحةٍ؛ ففي اكتشافنا أنّ الصوت هو في حقيقة الأمر ظاهرة موجاتٍ في الهواء أو في وسطٍ آخر، نتخلّى نحن عن منظورٍ لنتخذَ منظورًا آخر، أمّا الوسيط الذي نتخلّى عنه سواءً أكان بشريًا أو حيوانيًا فيبقى غير مختزلٍ. قد يفهم عضوا فصيلتين مختلفتين جذريًا الأحداث الفيزيائية نفسها عبر مفاهيم موضوعية، وهذا لا يتطلب منهما أن يفهما الأشكال الظاهرية التي بدت فيها تلك الأحداث بالنسبة لحواس أعضاء الفصائل الأخرى. هكذا كي يشير عضوا فصيلتين إلى واقعٍ مشتركٍ يُشترطُ ألا يكونَ منظورُهما الفريدان جزءًا من الواقع المشترك الذي يفهمانه كلاهما. يمكن أن ينجح الاختزالُ فقط إذا أسقطَ منظورُ المحددِ بفصيلاً ممّا يجب اختزاله.

وبينما نكون نحن محقّين في تركنا هذا المنظور جانبًا كي نسعى لفهمٍ أوسعٍ للعالم الخارجي، إذ لا يمكننا تجاهله بشكلٍ دائمٍ، بما أنه يُؤلفُ ماهية العالم الداخلي، وليس مجردَ منظورٍ فيه. إنّ معظم السلوكية الجديدة التي يتميز بها علم النفس الفلسفي يكون نتيجةً مجهودٍ لاستبدال مفهومٍ موضوعيٍّ للدّهن بالشّيء الحقيقي لهذا المفهوم، كي لا يُترك شيءٌ لا يُمكن اختزاله. إذا أقرنا بأنّ نظريةً فيزيائيةً للدّهن يجب أن تشرح الخاصية الذاتية للتجربة، فلا بدّ لنا من الاعتراف أنّ لا وجودَ لتصورٍ متوقّرٍ حاليًّا يعطينا دليلًا حول كيفية إتمام هذا. إنّ المشكلة فريدة. وإن تكن العمليات الذهنية عملياتٍ فيزيائيةً فعلاً، فثمة شعورٌ في أن تمرّ جوهرياً¹¹ بعملياتٍ فيزيائيةٍ معينة. أمّا السبب في كون تلك الحالة على ما هي عليه فيبقى لغزًا.

¹¹ إذن لن تكون العلاقة علاقةً عرضيةً، مثل تلك الشبيهة بعلةٍ ومعلولها المميز. ستكون الحالة الفيزيائية التي شعرت بشعورٍ معينٍ صادقةً بالضرورة. ويجادل سول كريبيكي «Saul Kripke» (المرجع نفسه) أنّ التحليلات السببية السلوكية وما شابهها لما هو ذهنيٌّ محكومةٌ بالفشل، لأنها تأوّل على سبيل المثال "الألم" على أنه مجرد اسمٍ عرضيٍّ للألم. إنّ الخاصية الذاتية لتجربةٍ معينةٍ (والتي يسميها كريبيكي: "نوعيتها الظاهرانية المباشرة" [ص. 1340]) هي الخاصة الأساس التي تسقطها تحليلات كتلك، والتي بناءً عليها تكون التجربة على ما هي عليه بالضرورة. إنّ رأيي قريبٌ جدًّا من رأي كريبيكي، حيث إنّي مثله أجد أنّ الفرضية القائلة بأنّ حالة دماغٍ معينةٍ يجب أن يكون لديها بالضرورة خاصيةً ذاتيةً معينةً لا يمكن فهمها من دون مزيدٍ من التفسير. لن ينبثق تفسيرٌ مثل ذلك التفسير من نظرياتٍ تعتبر علاقة الدّهن - الدماغ عرضيةً، وربما ثمة بدائل أخرى لم تُكتشف بعد.

ستتركنا النظرية، التي فسرت كيف كانت علاقة الدّهن - الدماغ ضروريةً، مع مشكلة كريبيكي في تفسير لماذا تظهر العلاقة عرضيةً على الرّغم من ذلك. تبدو لي تلك الصعوبة قابلةً للتجاوز بالطريقة الآتية. قد نتخيل شيئًا من خلال تمثيله إدراكياً «perceptually»، تعاطفيًا

أي مغزى أخلاقي يجب استخلاصه من هذه التفكرات، وما يجب فعله تاليًا؟ سيكون من الخطأ الاستنتاج أن على الفيزيائية أن تكون كاذبة. إن عدم كفاءة الفرضيات الفيزيائية التي تفترض تحليلًا موضوعيًا ذا أخطاء للذهن لا تُبرهن شيئًا. سيكون أصدق أن نقول بأن الفيزيائية موقف لا يمكننا فهمه لأننا في الوقت الحاضر ليس لدينا أي تصوّر كيف يمكنها أن تكون صادقة. قد يُظن من غير المنطقي اقتضاء تصوّر كهذا ليكون شرطًا للفهم. وفي جميع الأحوال يمكن القول أن معنى الفيزيائية واضح إلى درجة معينة: الحالات الذهنية هي حالات الجسد؛ الأحداث الذهنية هي أحداث فيزيائية. نحن لا نعلم ما هي تلك الحالات والأحداث فيزيائية، إنما لا يجب أن يمنعنا هذا الأمر عن فهم الفرضية المذكورة. ماذا يمكن أن يكون أوضح من كلمتي "يكون" و "يكونون"؟

لكنني أعتقد بأن الوضوح التي تظهر به كلمة "يكون" هو الأمر المضلل فيها تحديدًا. وعادةً، عندما يُقال لنا أن س هي ص نعرف كيف يفترض أن تكون القضية صادقة، لكن ذلك يعتمد على خلفية تصوّرية أو نظرية لا توصلها كلمة "يكون" وحدها. نعرف أن "س" و "ص" يشيران إلى مرجع، كما نعرف طبيعة المراجع التي يشيران إليها، ولدينا فكرة تقريبية عن كيف يمكن لدرين مرجعيين أن يتقاربا حول أمر واحد، سواءً أكان شيئًا، شخصًا، عمليةً، حدثًا، أم غيرها. إنما، عندما يكون مفهوما التماهي متباينين جدًّا، قد لا يبدو واضحًا كيف يمكن أن تكون تلك القضية صادقة. وقد لا يكون لدينا فكرة تقريبية عن الطريقة التي يمكن بها أن يتقارب الدربان المرجعيان، أو عن طبيعة الأشياء التي باستطاعتها أن يتقاربا حولها، وربما لا بد من تأمين إطار نظري ليمكّننا من فهم هذا الأمر. فمن دون الإطار النظري ستحيط بالتماهي نسمه من التصوّف «mysticism».

«sympathetically»، أو رمزياً «symbolically». لن أحاول توصيف عمل المخيلة الرمزية، لكن جزءًا مما يحصل في الحالتين الآخرين هو الآتي: كي نتخيل عبر الإدراك شيئًا، علينا أن نضع أنفسنا في حالة واعية تشبه الحالة التي سنكون نحن فيها إذا قمنا بإدراكها. وكي نتخيل عبر التعاطف شيئًا، علينا أن نضع أنفسنا في حالة واعية تشبه الشيء نفسه. (يمكن استعمال هذا المنهج لتخيل أحداث وحالات ذهنية أو أذهان غيرنا فقط). عندما نحاول أن نتخيل حالة ذهنية تحدث من دون حالتها الدماغية المرتبطة بها، نتخيل أولاً عبر التعاطف حدوث الحالة الذهنية: أي نضع أنفسنا في حالة تشبهها ذهنيًا. في الوقت نفسه نحاول أن نتخيل عبر الإدراك عدم حدوث الحالة الفيزيائية من خلال وضع أنفسنا في حالة أخرى غير مرتبطة بالأولى: حالة تشبه الحالة التي سنكون فيها إذا أدركنا عدم حدوث الحالة الفيزيائية. عندما يكون تخيل السمات الفيزيائية عبر الإدراك وتخيّل السمات الذهنية عبر التعاطف، يبدو لنا أنه يمكننا أن نتخيل آية تجربة تحدث من دون الحالة الدماغية المرتبطة بها، وبالعكس. ستظهر العلاقة بينهما عرضيةً، حتى إن تكن ضروريةً، بسبب استقلال نوعي المخيلة المتباينين. (تنتج الأناوحديّة عن سوء تأويل المخيلة التعاطفية على أنها تعمل مثلما تعمل المخيلة الإدراكية: عندها يبدو مستحيلًا أن نتخيل آية تجربة ليست بتجربتنا.)

وهذا ما يفسر الطعم السحري للعروض المتعلقة بالاكتشافات العلمية الأساسية التي تُقدّم للشعب على أيّها قضايا يجب تأييدها من دون فهمها جيّداً. مثلاً؛ يقال للناس منذ عمرٍ مبكرٍ أنّ كلّ ما هو مهمٌّ فعلاً يكون الطّاقة. ولكنّ على الرّغم من واقع أنّهم يعرفون ما تعني كلمة "يكون"، فإنّ معظمهم لم يشكّلوا قطّ تصوّراً عمّا يجعل هذا الادّعاء صادقاً، لأنّهم يفتقرون إلى الخلفيّة النظرية.

إنّ المكانة التي يشغلها المذهب الفيزيائيّ في الوقت الحالي يمكن أن تكون شبيهةً بالمنزلة التي ربّما قد شغلها الفرضيّة القائمة على أنّ المادّة طاقةٌ إذا ما تفوّه بها فيلسوفٌ ما قبل السّقراطيّ «Pre-Socratic». إذ ليس لدينا بدايات تصوّر كيف يمكن لهذه الفرضيّة أن تكون صادقةً. وكي نفهم الفرضيّة القائلة بأنّ الحدث الدّهنيّ يكون حدثاً فيزيائياً، يتطلّب الأمرُ منا أكثر من مجرد فهمٍ لكلمة "يكون". إنّ الفكرة التي تدور حول الطّريقة التي يمكن لمفهومٍ ذهنيّ أو فيزيائيّ أن يشير بها للشيء نفسه منقوصةً، وتعجز المماثلات «analogies» المعتادة للتّماهي النظريّ في المجالات الأخرى عن سدّ النّقص فيها. تفشل تلك النّظريّات لأنّه إذا أولنا إحالة المفاهيم الدّهنية إلى أحداثٍ فيزيائيّةٍ على النّمودج المعتاد، سنحصل إمّا على إعادة تمظهر الأحداث الدّاتية المنفصلة كتأثيراتٍ يتأمّن من خلالها الإحالة الدّهنية إلى الأحداث الفيزيائيّة، إمّا على شرحٍ مغلوّطٍ عن الطّريقة التي تشير بها المفاهيم الدّهنية إلى مرجعٍ (مثلاً الشّرح السلوكيّ السّببي).

أمّا المثير للغرابة فهو أنّنا قد يكون لدينا دليلاً على حقيقة شيءٍ لا نستطيع أن نفهمه جيّداً. فلنفترض أنّ شخصاً غير مطّلعٍ على التحوّلات الحشريّة «insect metamorphosis» قام بإقفال خزانةٍ معقّمةٍ على أسروعٍ «caterpillar»، ثمّ فتحها بعد أسابيع ليكتشف فيها فراشةً. إذا كان الشخص متأكّداً من أنّ الخزانة كانت مغلقةً طوال الوقت، فسيكون لديه سببٌ للاعتقاد بأنّ هذه الفراشة كانت أسروعاً، من دون امتلاكه فكرةً كيف تمّ هذا الأمر (ثمّة احتمالٌ بأنّ الأسروع احتوى على طفيليٍّ مجنّحٍ صغيرٍ جدّاً التهمه، ثمّ نما حتّى أصبح فراشةً).

وحيث يتعلّق الأمر بالفيزيائيّة فمن الممكن تصوّر أنّنا في موقفٍ مشابهٍ لموقف ذلك الشّخص. لقد جادل دونالد ديفيدسون «Donald Davidson» بأنّ إذا كانت لدى الأحداث الدّهنية عللٌ ومعلولاتٍ فيزيائيّة، فلا بدّ أن يكون لديها أوصافٌ فيزيائيّة. ويتمسك ديفيدسون بأنّ لدينا سبباً للاعتقاد بذلك حتّى إن لم يكن عندنا نظريّةٌ نفسيةٌ فيزيائيّةٌ شاملة^{١٢}، إنّما في حقيقة الأمر لا يمكن أن يكون لدينا نظريّةٌ كتلك. إنّ حجّة ديفيدسون تنطبق على

^{١٢} انظر:

"Mental Events" in Foster and Swanson, Experience and Theory (Amherst, 1970);

على الرّغم من أنّي لا أفهم الحجّة المطروحة ضدّ القوانين النفسيّة الفيزيائيّة.

الأحداث الذهنيّة القصدية، لكنّي أظنّ أنّ لدينا أيضًا بعض الأسباب للاعتقاد بأنّ الإحساسات عمليّات فيزيائيّة، من دون أن نكون في موقفٍ معيّنٍ لنفهم كيف يتمّ ذلك. إنّ خلاصة موقف ديفيدسون هي أنّ لدى بعض الأحداث الفيزيائيّة خواصّ ذهنيّة لا يمكن اختزالها، وربّما تكون النظريّة القابلة للوصف بهذه الطريقة صحيحةً. ولكنّ لا شيء يتوافق معها ممّا يمكننا أن نشكّل الآن عنه تصوّرًا، كما ليس لدينا أيّة فكرة حول ما ستشبه النظريّة التي مكنتنا من تصوّره.^{١٣}

لقد كتبت أعمالاً نزيهة حول السّؤال الأساس (الذي يُسقط منه بشكلٍ كاملٍ أيّ ذكرٍ للدماغ): هل يمكن تشكيل أيّ مغزى من امتلاك التجارب خاصيّة موضوعيّة؟ وبمعنى آخر، هل يشكّل مغزى أن نسأل ماذا تشبه تجاربي فعلاً، بمقابل كيف تبدو تلك التجارب بالنسبة لي؟ لا نستطيع حقًا أن نفهم الفرضيّة القائلة بأنّ الوصف الفيزيائيّ يمكنه أن يُصوّر طبيعة التجارب إلّا إذا فهمنا الفكرة الأكثر أساسًا بأنّ لدى التجارب طبيعة موضوعيّة (أو يمكن أن يكون لدى العمليّات الموضوعيّة طبيعة ذاتيّة).^{١٤}

أودّ أن أختتم مقالتي باقتراحٍ نظريّ «speculative». إذ بإمكاننا مقارنة الفجوة القائمة بين الذاتيّ والموضوعيّ من اتّجاهٍ آخر. إذا وضعنا بشكلٍ مؤقتٍ جانبًا العلاقة القائمة بين الدّهن والدماغ، فيمكننا أن نسعى نحو فهم أكثر موضوعيّةً للذهنيّ وحده. أمّا في الحاضر فنحن لسنا مستعدين بشكلٍ كاملٍ لنفكر في الخاصيّة الذاتية للتّجربة من دون الاعتماد على المخيلة _ من دون اتّخاذ منظور الذات التجريبيّة «experiential subject». علينا اعتبار هذا بمنزلة تحدّد لتشكيل مفاهيم جديدةٍ وابتكار منهجٍ جديدٍ _ ظاهريّةً موضوعيّةً لا تعتمد على التّشاعر «empathy» أو المخيلة. ومن المفترض أنّها لن تتمكّن من تصوير كلّ شيء، بل سيكون هدفها وصف الخاصيّة الذاتية للتجارب، جزئيًّا على الأقل، في شكلٍ قابلٍ للفهم عند كائناتٍ غير قادرةٍ على امتلاك تلك التجارب.

علينا أن نطوّر ظاهريّةً لوصف تجارب سونار الخفافيش، ولكن سيكون من الممكن أيضًا أن نبدأ بالبشر. مثلاً، قد يحاول أحدٌ تطوير مفاهيم يمكن استعمالها لدى شخص أعى منذ الولادة للتّفكير له ما يكون

^{١٣} تنطبق على مقالتي تعليقاتٌ مشابهة:

"Physicalism," Philosophical Review LXXIV (1965), 339-356, reprinted with postscript in John O'Connor, Modern Materialism (New York, 1969).

^{١٤} يكمن هذا السّؤال أيضًا في صلب مشكلة الأذهان الأخرى «problem of other minds»، حيث إنّ ارتباطها الوثيق بمشكلة الدّهن _ الجسد غالبًا ما يتم تجاهله. وإذا فهم أحدٌ كيف يمكن أن يكون لدى التجربة الذاتية طبيعةً موضوعيّةً فسيفهم وجود ذواتٍ غير ذاته.

الشعور في أن يرى. وفي نهاية المطاف، سيبلغ حائطاً مسدوداً، إنما سيكون ممكناً تصميم منهجٍ للتعبير بمصطلحاتٍ أكثر موضوعيةً ودقةً ممّا يمكننا التعبير عنه حالياً.

قليلةٌ هي منفعة متماثلات المقولات الركيكة التي تبرز عند المناقشات في هذا الموضوع، نحو "الأحمر مثل صوت البوق". لا بدّ من هذا أن يكون واضحاً لأيّ شخصٍ قد سمع بوقاً ورأى الأحمر. لكن، قد تكون السمات البنيوية للإدراك أكثر قبولاً للولوج إلى الوصف الموضوعي، حتّى لو أُسقط شيءٌ منها. أمّا المفاهيم البديلة لتلك التي نتعلّمها في صيغة المتكلّم فقد تمكّنتنا من التّوصّل إلى نوعٍ من الفهم، حتّى أنّها قد تمكّنتنا من التّوصّل إلى فهم تجربتنا الخاصّة بنا التي نرفضها، لأنّ المفاهيم الذاتية توقّر سهولةً ودقةً في الوصف.

بالإضافة إلى اهتماماتها الخاصّة بها، قد تسمح الظاهرانية، التي تكون بهذا المعنى موضوعيةً هنا، باتّخاذ الأسئلة المتعلّقة بالأساس الفيزيائي^{١٥} للتجربة شكلاً أكثر معقولاً. قد تكون مظاهر التجربة الذاتية التي تقول بهذا النوع من الوصف الموضوعي من أفضل المرشّحين للتفسيرات الموضوعية للنوع الأكثر مألوفاً. لكن سواءً أكان هذا التقدير صحيحاً أم لم يكن، فيبدو من غير المرجّح أنّه يمكن تأمل أيّة نظرية فيزيائيةٍ للدّهن إلى أن يُعطى وقتٌ إضافيٌّ لتفحص مشكلة الذاتي والموضوعي العامّة. وما عدا ذلك فلا يمكننا حتّى أن نطرح مشكلة الدّهن-الجسد بلا تجنّبها.^{١٦}

توماس نيغل

جامعة برنستون

^{١٥} أنا لم أعرف مصطلح "فيزيائي". ومن الواضح أنّه لا ينطبق فقط على ما يمكن وصفه من خلال مفاهيم علم الفيزياء المعاصر، بما أنّنا نتطلّع إلى تحسيناتٍ أكثر منه. قد يظنّ البعض أنّه ليس ثمة من شيءٍ يمنع الظواهر الذهنية من التعرّف إليها في نهاية الأمر على أساس أنّها فيزيائيةٌ وحدها. لكن مهماً قد يُقال عن الفيزيائي غير ذلك فعليه أن يكون موضوعياً. إذن، إن توسّعت فكرتنا عن الفيزيائي لتضمّ الظواهر الذهنية، فلا بدّ أن تسند إلى هذه الظواهر خاصيةً موضوعيةً _ سواءً أتمّ ذلك أم لم يتمّ عبر تحليلها من ناحية ظواهرٍ أخرى اعتُبرت فيزيائيةً مسبقاً. بينما يبدو لي من الأكثر ترجيحاً أنّ العلاقات الذهنية-الفيزيائية سوف يُعبّر عنها في نهاية الأمر بنظريةٍ لا يمكن وضع مصطلحاتها الأساسية في أيّة مقولةٍ.

^{١٦} لقد قرأت مخطوطاتٍ من هذه المقالة على عددٍ من الجماهير، وإني مديونٌ للكثيرين على تعليقاتهم.

ثبت المصطلحات

Analogue	متماثل
Automata	الآلات
Behavior	سلوك
Belief	اعتقاد
Black death	الموت الأسود (الطاعون)
Category	مقولة
Causal role of experiences	الدور السببي للتجارب
Cause	سبب
Cause	علة
Characterization	تخصيص
Cognitive dissonance	التنافر المعرفي
Concept/notion	مفهوم
Conception	تصوّر
Conceptual relativism	النسبية التصورية
Conceptual schemes	التخطيطات التصورية
Conscious experience	التجربة الواعية
Conscious mental phenomena	الظواهر الذهنية الواعية
Conscious mental states	حالات ذهنية واعية
Contingent	عرضي

Continuum	مسار متدرّج
Echolocation	تحديد الموقع بالصّدى
Effect	معلول
Empathy	تشاعر
Epistemological	الأبستمولوجيّة
Event/Events	حدث / أحداث
Experiential subject	الذّات التجريبيّة
Experiential terms	مصطلحات تجريبية
Fact/Facts	واقعة/وقائع
Feature/Features	سمة / سمات
First person	صيغة المتكلّم
Form of the experience	شكل التجربة
functional characteristics	خصائص وظيفية
Functional states	الحالات الوظيفية
Gene-DNA problem	مشكلة الجين – الحمض النّوويّ الصّبغيّ
Hypothesis	فرضية
Imagination	مخيّلة
Impressions	انطباعات
Intelligible	معقول
Intentional states	الحالات القصدية
Inter-species	البينفصليّة

Lightning-electrical discharge problem	مشكلة البرق – التّفريغ الكهربائيّ
Materialism	المادّيّة
Mental concepts	مفاهيم ذهنيّة
Mentalistic ideas	أفكار ذهنيّة
Method	منهج
Mind-body problem	مشكلة الدّهـن-الجسد
Mysticism	تصوّف
Necessity	ضرورة
Neobehaviorism	السلوكيّة الجديدة
Neurophysiological constitution	البنية الفيزيولوجيّة العصبية
Oak tree-hydrocarbon problem	مشكلة السّنديانة-الهيدروكربون
Object of ascription	موضوع العزو
Objective	موضوعيّ
Objective ascription	العزو الموضوعيّ
Observation	ملاحظة
Organisms	الكائنات العضويّة
Perception	الإدراك
Perceptual imagination	المخيّلة الإدراكيّة
Phenomenal features	سمات ظاهريّة
Phenomenological features	سمات ظاهرائيّة
Phenomenon/Phenomena	ظاهرة / ظواهر

Philosophical psychology	علم النفس الفلسفيّ
phylogenetic tree	شجرة تطوّر السلالات
Physicalism	الفيزيائية
Point of view/Viewpoint	منظور
Property/Properties	خاصّة/خواصّ
Propositions	القضايا
Psychophysical identification	التماهي النفسي الفيزيائيّ
Realism	واقعيّة
Reality	واقع
Reductionism/ Reductionist	اختزاليّة / اختزاليّ
Reflection	التفكّر
Representation	تمثيل
Sensations	إحساسات
Sense/Senses	حاسة/حواسّ
Sensory apparatus	جهاز حسّيّ
Skeptical	شكّائيّ
Solipsism	الأناوحدية
species-specific	محدّدة بفصيلة
Speculative	نظرائيّ
Subject	ذات
Subjective	ذاتيّ

Subjective character	الخاصية الذاتية
Subjective character of experience	الخاصية الذاتية للتجربة
Subjective-to-objective model	نموذج ذاتي-إلى-الموضوعي
Symbolic imagination	المخيلة الرمزية
Sympathetic imagination	المخيلة التعاطفية
Sympathy	تعاطف
Systems of representations	أنظمة التمثيل
Term	مصطلح
Third person	صيغة الغائب
Transfinite numbers	أعداداً موعلة
Turing machine-IBM machine problem	مشكلة آلة تورنغ – آلة شركة (IBM)
Type	نوع
Understanding	فهم
Visual appearance	مظهر بصري
Vocabulary	الرصيد اللغوي
Water-H ₂ O problem	مشكلة الماء – (H ₂ O)